

# تمثيل الحفول وما مثلها

مما يشبه التماثيل ما كانوا يقيمونه في المزارع على هيئة الرجل لتفزع الطير والوحش ويسمونه باللعين ، وبالرجل اللعين ، وبالخيال والضبغطرى والمجدار والنطار . قال الشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين (٢٢٠)

وقال آخر :

أخ لا أخا لي غيره غير أنتي كراعى الخيال يستطيف بلا فكر (٢٢١)

واعلم هذا النوع هو المقصود بقول القائل ، وهو من شواهد « شرح السيراني على كتاب سيبويه » .

تعال نصنع رجلا مثل عدى نصنعه من الرقاع والعصى (٢٢٢)

وذكر البغدادي في « خزنة الأدب » قولاً آخر في الرجل اللعين الوارد في بيت الشماخ فقال : « وقد أغرب أبو عبيد البكرى في « شرح أمالي القالي » بقوله : كان الرجل في الجاهلية إذا غدر ، وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصب ، وقيل : ألا إن فلاناً قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن اظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال . هذا كلامه ، فلينظر على هذا ما معنى البيت ؟ » انتهى .

ولا ريب في أن هذه الشخصوس لم تكن بالغة من الإتيان ما تطلبه صناعة التماثيل حتى يصح عدها منها وإلحاقها بها ، ولكن تمثال المرأة الذي صنعه سكان مصر\* من الجريد والقراطيس ، وأقاموه في طريق الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وجعلوه هو وجنده يتوهمونه آدمية ترفع إليه قصة ، يدل على أن من هذا النوع ما كانوا يحكمون تمثيله إذا

(\*) المراد بمصر الفسطاط ، كثرت تسميتها بذلك بعد بناء القاهرة ، وكانت مفصولة عنها ، فلما اتصلت بها ، وصارت قسماً من أقسامها عبروا عنها بمصر العتيقة كما تسمى الآن ، وقد رأيت الدخاوي يعبر به عنها في « الضوء اللامع » .

أرادوه . وخلاصة القصة أنهم كانوا موتورين منه ، فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه ، والسب له ولأسلافه ، والوقوع فيه وفي حُرْمه ، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال امرأة من جريد وقراطيس بخف وإزار ، ونصبوها في الطريق ، وتركوا في يدها رقعة كأنها ظلامه ، فلما رآها الحاكم غضب ، لأنه كان منع النساء من الخروج في الطرق ، وأخذ الورقة منها ، فإذا فيها ما استعظمه من السب ، فأمر بالمرأة أن تؤخذ فوجدوها من جريد ، وعلم أنها من عمل أهل مصر ، فاشتد غضبه ، وأمر عبده بإحراق المدينة ، فأحرقوا ثلثها ونهبوا نصفها . وقد ذكر هذه القصة بعض المؤرخين ، ولكن القريري قال إنه لم يرها مسطورة ، وإن المسبحة ذكر حريق مصر ، ولم يذكر قصة المرأة<sup>(٢٢٤)</sup> . قلنا ممن ذكرها ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة »<sup>(٢٢٥)</sup> ، نقل عن ابن الصابي ، وسبقه إلى ذكرها ابن الأثير في « الكامل » ولكن في موضعين : أحدهما في كلامه على قتل الحاكم بأمر الله ، فرواها كما أثبتناها ، والثاني قبل ذلك في كلامه على وفاة أبيه العزيز ، فجعل عمل أهل مصر لهذا التمثال في مدته لما ولي عيسى بن نسطورس النصراني كتابته ، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشأ ، وأنهم كتبوا في الورقة التي وضعوها بيد التمثال « بالذي أعز اليهود بمنشأ ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي » . والذي عليه المؤرخون أنها وقعت مدة الحاكم ، وليس فيما حكوه عن العزيز ذكر للتمثال ، وإنما هي امرأة كتبت إليه بهذه العبارة في قصة ، فكانت سببا لعزل هذين العاملين ، ومصادرتهم ، فتوهم ابن الأثير أو من نقل عنه أن المراد بالمرأة هنا التمثال ، فخلط بين القصتين .

ومن هذا النوع تمثال فيل من البواري ، عمله أهل بغداد ، وذكره أبو الفرج ابن الجوزي في « مناقب بغداد » عند ذكره لبناء السور الذي أقامه عميد الدولة سنة ٤٨٨ هـ فإنه لما شرع فيه أذن للعامة في الاحتفال به ، فجاءوا بالأعلام والأبواق والطبول ، ومعهم المعاول وأنواع الملامح يسرون بها في الأسواق ، فصنع بعضهم فيلانا من البواري المقيرة ، وتحتته قوم يسرون به ، وصنع آخرون زرافة كذلك ، وعمل غيرهم قلعة تسير على عجل ، وفيها الرماة إلى آخر ما ذكره<sup>(٢٢٧)</sup> . قلنا والظاهر أن عمل هذه التماثيل في الاحتفالات كان

شائعاً بين أهل بغداد؛ فقد ذكر ابن الأثير في «الكامل»، وابن الفرات في «تاريخه»، في الصلح الذي وقع بين أهل السنة والشيعة سنة ٥٠٢، بعد ما طالت بينهم الشرور، أنهم احتفلوا لذلك، وخرج أهل السنة لزيارة قبر مصعب بن الزبير، ومعهم من الزينة والسلاح شيء كثير، وجاءت طائفة بفيل عمل من خشب، وعليه الرجال بالسلاح، فاستقبلتهم الشيعة بالبخور والطيب والماء المبرد، وأظهروا بهم السرور، ولم يمترضوهم بمكرهه، غير أنهم في عودتهم انكسر الفيل عند قنطرة باب حرب، فقرأ بعضهم: «لم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل...» إلى آخر السورة. بل الظاهر أن ذلك كان شائعاً بمصر أيضاً مدة الخلفاء الفاطميين، فقد أشار إليه المقرئ في «خطبه» في كلامه على جامع الفيلة الذي بناه الأفضل ابن أمير الجيوش بسطح الجرف المطل على بركة الحبش، الذي عرف بعد ذلك بالرصد، ونص عبارته: «وإنما قيل له جامع الفيلة؛ لأن في قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد، وعليها السرير، وفوقها المدرعون أيام الخلفاء» (٣٣٨).

ومن غريب ما ذكره من مزاعم العرب في جاهليتهم، ويصح إلقائه بهذا النوع، تماثيل الجبال التي كانوا يعملونها من طين، قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»: «ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت هلة الواحد منهم وظنوا أن به مسأ من الجن، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً، عملوا جمالا من طين، وجعلوا عليها جوالق، وملئوها حنطة وشعيراً أو تمرأ، وجعلوا تلك الجبال في باب جُجر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس، وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجبال الطين؛ فإن رأوا أنها بجالها قالوا: لم تقبل الدية، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة، قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض، وفرحوا وضربوا بالدف، قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسقم      احمل إلى الجن حمالات قضم\*  
فقد فعلت والسقام لم يرم      فبالذي يملك بُرئي أعتصم†

(\*) الحمالات جمع حمالة بفتح الأول: وهي الدية يحملها قوم عن قوم. والقضم اسم جمع للضميم؛ وهو شعير الدابة، والمراد به هنا هو أو ما يشبهه من بر وغيره.  
(†) لم يرم. أي لم يبرح.

وقال آخر :

فياليت أن الجنّ جازوا حمّالي  
ويا ليتهم قالوا أنظنا كلّ ما حوت  
أعلل قلبي بالذي يزعمونه  
وزحزح عني ما عناني من السقم  
يمينك في حرب غماس وفي سلم\*  
فياليتني عوفيت في ذلك الزعم

وقال آخر :

أرى أن جنّان النويرة أصبحوا  
حملت ولم أقبل إليهم حمالة  
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم  
تغطّوا بثوب الأرض عني ولو بدّوا  
وهم بين غضبان على وآسف†  
تسكن عن قلب من السقم تالف  
ومن لي من أمثالهم بالتناصف  
لأصبحت منهم آمناً غير خائف» (٣٣٩)  
انتهى ما ذكره ابن أبي الحديد .

ومن التماثيل التي كانوا يصنعونها من الطين أو الخشب صورة أسد يتخذها صائدو الأسود لتدريب الخيل وتعويدها . وكان بعضهم يتورع عن تصوير الوجه فيجعل موضع رأس الأسد عمامة . قال محمد بن منكلب نقيب الجيش بمصر مدة الأشرف شعبان في كتابه الذي ألقه في الصيد وسماه « أنس الملا بوحش الفلّاء » †† مانصه : « ولا ينبغي أن تقدم على السبع إلا على فرس لا ينفّر عن الأسد ، ويكون قد تعلم قبل ذلك على صورة أسد من طين أصفر بلا رأس خشية التجريم ؛ لكن اجعل على موضع رأسه عمامة صفراء محوقة . وكان عندي حصان لا ينفّر من الأسد كنت علمته على هذه الصورة . وينبغي لمن يهذب فرسه على السبع أن يجعل هيئة سبع من خشب أو طين فيحمل ذلك التمثال إلى أرض مستوية ، ويجعل له العمامة عوض الرأس كما تقدم ، ويكون الناصب له قد أوثقه في الأرض كما يفعل بالشخص الخشب ، وأنا لا أرى بتصوير ذلك الشخص لما فيه من النهي الشرعي ؛ فإن نصبت هيئة الأسد من الخشب فارمه وأنت سائق لفرسك ، واضربه بسوط حتى يأنس فرسك ذلك ، ولا يكون الرمي عليه إلا بعد أن يألف ذلك الشخص

(\*) أنطى : بمعنى أعطى ، في لغة اليمن ، وقد وصل همزة للضرورة .

(†) الجنّان ، بكسر الأول وتشديد النون : جمع جان .

(††) طبعم في باريس سنة ١٨٨٠ م ومعه ترجمته إلى الفرنسية .

الموضوع من الطين ، ولكن يعمل له ذنب من جِرَق صفر على هيئة ذنب الأسد ، وتكون قد وضعت على شكل أكبر ما يكون من السباع . واجعل علف فرسك على ظهره ، بعد استئناسه ، واجعل مع الشعير زيبياً أو قطعاً من الناطف من الحلواء الخارجية التي قيمتها نصف درهم الرطل . فإذا أنس ذلك فاعمد حينئذ إلى وضع الشكل من خشب وادهنه بالزرنينخ الأصفر أو الطين الأصفر ، وليكن له ذنب ؛ فإذا خرجت بالتمثال إلى الصحراء ، وليكن من الخشب الخفيف كالسفصاف ونحوه ، فاجعل ليديه ورجليه بَكَراً كَبَراً واربط به حبلاً طويلاً يجرّه رجل قبالة الفرس قليلاً قليلاً ، ثم يستوقف الفرس فرسه على تلك الصورة ، وليكن الجار لذلك التمثال يقف به قليلاً ثم يجره ويقف ، لئلا ينفر الفرس منه ؛ هكذا أياماً حتى يجرّه بقوة ويقدم على الفرس ويزار ذلك الرجل كزئير الأسد ويخشن صوته ما استطاع ، وينبغي أن يكون جَهْوَرِيّ الصوت ، ثم يستصحب معه بعد ذلك قرقلة\* ، ويكون حسن التصويت بها حتى يعتاد الفرس على زئير السباع واستماع صوت الأسد عند رفع ذنبه « (٣٤٠)

وذكر ابن منكلبي في موضع آخر من كتابه هذا ، في باب تضحيك الملوك أنهم كانوا يعملون تماثيل تشبه بعض الفلمان ورجال الحاشية ، ويدربون صقور الصيد على الانقراض عليها حتى إذا خرج الملك إلى الميدان يرسلونها على الشخص الذي دربوها على تماثيله فتتنقض عليه . ثم ساق قصة وقعت في ذلك بالحلة زمن دبّيس بن مزيد ملك العرب بين حميد مرتب صقوره ووزيره جمال الدين ؛ وكان الوزير حبس رزق حميد فاتخذ هذا تماثلاً يشبهه ودرب عليه الصقور ، ثم أطلقها على الوزير بحضرة الملك في الميدان ، ولم يخلصه منها حتى وفي له بالمال . وأنعم عليه بزيادة من عنده . ثم ذكر المؤلف أن مثله كثير الوقوع بحضرة الملوك مثل صاحب الموصل وبغداد وغيرها (٣٤١)

(\*) هكذا بالأصل ، والظاهر أنها آلة للتصويت أو بوق أو وعاء ينفخ فيه ، وقد وهم المترجم فترجمها بامرأة تشترك مع الرجل في التصويت . ونص عبارته : Ensuite il se fera accompagner par une femme et tous deux s'efforceront de crier هذا صفة قدر مدبرة تعمل ليخرج منها صوت كزئير الأسد لتفزع الوحوش المؤذية وتردها عن الأماكن والبساتين ، فالراجح أنها هي المرادة هنا ، وإذا صح ذلك ، فلا يبعد أن تكون العامة حرفت اسمها عن القرقارة ، وهي لئاء طويل العنق سمي بذلك لقرقرته ، ثم أطلقت الاسم بعد تحريفه على هذه القدر .